مصر منذ تسعين سنة

(١١)

الافندي الارمني

في صباح اليوم التالي خرجنا من مرقا دمياط في قارب لتتصل فرنسا ورافقنا القواس وقد عهد اليه في شحن الرز من العزبة وتسلم الى المركب اليوناني الراسي في عرض البحر عند راس البوغاز. فسار بنا القارب بين مروج خصبة وغابات من النخيل. وبينما كنت امتع بصري بتلك المناظر البديعة البهجة والقارب يسير بنا الهوينا ومياه النيل الصافية كالمرآة تجمد كحلقات الزرد من نسمات السحر وتتلاطم معانقة مياه البحر المالحة اذ وصل الى سمعي غناء بلغة غريبة وقد تكرر مطلعهُ هكذا: « استنبولدن آه يلير فرمان. مني عثمان يارجندة يلير استنبولدن » فالتفت الى مصدر الصوت فرأيت شاباً بهي الطلعة ولكنهُ زري الهيئة فسألت القواس عنهُ فقال انهُ شاب ارمني صعلوك من اسطنبول يجول في البلاد للاستجداء وهو يغني بالتركية اغنية دارجة شاعت عند صدور الفرمان من السلطان بقتل الانكشارية

ثم وقف بنا القارب عند عزبة بالقرب من بحيرة المنزلة لشحن اكياس الرز فخرجت الى البر وجلست على العشب فاتى ذلك الشاب الارمني وجلس بالقرب مني فتبينتهُ واذا هو جميل الهيئة بملامح شركسية وعينين سوداوين استرسل شعرهُ على جبينهِ وفوديهِ تحت طربوش احمر تركي وهو يلبس « غنباز » قصيراً او سابة من الحرير مقلمة بخطوط ملونة الاَّ انها ضيقة فوقها جبة قصيرة من جوخ اسود عريضة الاكمام الاَّ انها ممزقة. وفي وسطهِ منطقة ملونة فهو في هيئتهِ هذه وشكلهِ كتركي فقير ولم أرَ في وسطهِ الخناجر والخناجر حسب عادة الترك بل وضع بدلاً منها دواة طويلة من نحاس اصفر فتأكدت حينئذٍ انهُ « افندي » من رجال الكتابة ودهشت حينما بادأني بالتحية باللغة الفرنسوية قائلاً: بونجور مسيو

فقلت له أأنت مصري؟ اجاب كلا انا من اسطنبول هاجرت الى هذه البلاد مع من هاجر من الاتراك والارمن للارتزاق بعد ان استقل محمد علي باشا في حكم ولاية مصر

وكنت كاتباً ومترجماً في سراي طوسون بك فجل سعادته ثم خرجت من عنده وحضرت الى دمياط ولما علمت انك مسافر الى سوريا عزمت ان اصحبك في السفر الى بيروت ولي هناك شقيق كاتب عند حاكم تلك المدينة ومقرب اليه . فالتفت نحو القواس وقلت لهُ لا أرى بأساً ان يسافر هذا الشاب معنا . فاخذني ناحية وقال لي همساً : اني لا ارى من الفطنة والصواب ان تصحبهُ معك لئلا تضطر ان تدفع عنهُ نفقتهُ واجرة السفر في المركب اليوناني لانهُ نفير معدم لا يملك سوى دواتهِ واقلامهِ فهو من الجوالين العماليك الذين يجولون في البلاد متخذين مهنة الكتابة ونظم الاشعار للاستجداء ولما وصل الى دمياط قصد القنصل فنقدهُ بعض دريهمات وصرفهُ

فالتفت حينئذٍ نحو الشاب وقلت لهُ اني آسف يا عزيزي لكوني لا اقدر ان اصحبك معي في المركب فليس في وسعي ان ادفع عنك اجرة السفر فقد نفدت دراهمي وما عندي لا يكاد يكفيني للوصول الى بلادي . فاجابني لا بأس سابق هنا عند الفلاحين الى ان يمر بعض السياح الانكليز الذاهبين الى سوريا ولا بد ان اجد بينهم واحداً ذا حنان وعطف ومروءة فيأخذني معه . فآلمني هذا الكلام وحرك في قلبي عاطفة الغيرة والمنافسة الجنسية فندمت لما ابديتهُ من الجفاء نحو هذا الشاب المسكين

— بوغاز دمياط و بحيرة المنزلة —

وبينما كان الفلاحون يشحنون اكياس الرز في القارب اتخذت هذه الفرصة للتفرج على بحيرة المنزلة القريبة من هناك فسرت مع القواس في تلك المروج والغياض واجتزنا قرية تدعى « المزبة » وكل بيوتها حقيرة من الطوب النيء ما عدا جامعاً قديماً متهدماً واثار برج من الحجر الصلب وكلاهما تهدما في حصار دمياط على عهد الصليبيين تحت قيادة الملك لويس التاسع . وكان هذا البرج من حصون دمياط القديمة ذات الاسوار المنيعة وكانت على شاطئ البحر غير انهُ على طول الزمن تغلب طمي النيل على المياه فصارت المدينة على بعد بضعة اميال من الشاطئ . وقد قرر العلماء ان تربة الاراضي المصرية تكتسب ميلاً من ارض البحر في كل ستمائة سنة بواسطة الطمي . وان مدينة دمياط الحالية كانت منذ تأسيسها على شاطئ البحر المالح فصارت الآن على مرّ الزمن وبرسوب طمي النيل على مسافة اميال من البحر

وكانت دمياط محطاً للقوافل والمسافرين بين البرّين مصر وسوريا في الزمن السابق

ولم تزل الى الآن آثار مدن وخرابات على شاطىء البحر وضفاف بحيرة المنزلة طمرتها الرمال بعد ان قذفتها الرياح من الصحارى الشرقية . وتتبع العلماء هذه الآثار على شاطىء البحر فوجدوا خرائب مدن مصرية كثيرة بنيت على عهد ملوك طيبة والملوك الرعاة . وبعض تلك المدن كانت على شاطئ البحر فتغلبت عليها الرمال الشرقية والطمي فصارت على مسافات بعيدة عن البحر وقد احصى العلماء الجيولوجيون طبقات الطمي وطوها عن الماء وحسبوا الزمن الذي ترسب فيه كل طبقة من الارض بسبب طمي النيل في كل سنة من السنين فوجدوا ان عمر الاراضي المصرية اربعون الف سنة منذ كانت المياه غامرة بلاد الدلتا كلها

ثم وصلنا الى بحيرة المنزلة وهناك رأينا الوفاً من قوارب الصيادين تمخر في تلك البحيرة وبين جزرها الكثيرة لصيد السمك . ويصطادون منهُ في كل سنة الوفاً من القناطير تكفي مؤونة مصر كلها . وبحيرة المنزلة هي بحيرة ماريوتيس القديمة وعلى شواطئها كانت مدينة تانيس العاصمة القديمة ومدن كثيرة عفت آثارها ومدينة بيلوزا مفتاح القطر المصري في الحدود الفاصلة بين سوريا ومصر ومن هذه المدينة اجتاز الملوك الفاتحون لاجتياح مصر كملوك اشور وفارس واليونان والرومان . ومنها دخل الاسكندر الى مصر . وحول البحيرة اراضٍ مشبعة من نشع مياه النيل تزرع ارزاً ولتخللها اشجار الطرفاء والجميز والنخل وعلى ضفاف الترع نباتات البردي واللوتس الارجواني والنيلوفر وتحوم حولها الطيور من حمام وبط واوز وغيرها من الطيور المائية الصالحة للصيد

وبينما كانت انظاري متجهة الى حركة قوارب الصيادين والى مدهشات الطبيعة وافكاري منصرفة الى تلك العاديات القديمة سمعت تلك الاغنية التركية التي سمعتها في القارب من ذلك الشاب الارمني الذي رفضت ان اصحبهُ معي تبعاً لمشورة القواس وكان يكرر نشيدهُ فالتفت فرأيتهُ واقفاً على بعد بعض خطوات مني وفي وسطهِ دواتهُ الصفراء النحاسية وتحت ابطهِ صرة ثيابهِ وهي كل ما يملك من حطام الدنيا فحملتني الشفقة عليهِ الى استئناف الحديث معهُ فتركت القواس ودنوت منهُ وقلت لهُ همساً

كنت اود ان آخذك معي الى سوريا لولا الضائقة المالية ولكني سأطلب من ربان المركب ان يأخذك باجرة قليلة وانا اقدم لك الطعام مدة السفر تخفف عنك

وطأة الهم . وقد رأيت هذا القواس الانكشاري حاقداً عليك فربما كان ذلك لانك تعرض به في اغنيتك التركية عن صدور الفرمان بقتل الانكشارية . فاجابني لا بل هو نفسهُ بادأني بالعداء ولم يدعني اقابل القنصل بدمياط ولولا انهُ جعل نفسهُ تحت حمايتهِ وادعى بانهُ الباقي لما بقيَ الى الآن حيًّا فلا يوجد الآن انكشاري واحد في كل السلطنة التركية

واهتممت باصلاح ذات البين بينهما وعزمت ان اصحبهُ معي فحمل صرة ثيابهِ تحت ابطهِ واتبعنا ولما رجعنا من تطوافنا الى العزبة رأينا القارب امتلأ من اكياس الرز والجارية جالسة بين اقفاص الدجاج تنتظرني بفروغ صبر . فاربنا القارب في الترعة الدمياطية الى البوغاز (رأس البر) وكنا كلما تقدمنا نسمع امامنا طبقات الرمال من الضفتين وهذا ما جعل الترعة غير صالحة لمسير السفن الكبيرة . فالمراكب التي ترد من سوريا واليونان واسطنبول ترسو في آخر البوغاز . ورأينا على ضفتي الترعة آثار حصنين قديمين متهدمين من عهد الصليبيين . وبعد ساعتين وصل بنا القارب الى البوغاز حيث ملتقى ماء النيل بالماء الملح وتبيّنا المركب اليوناني فاذا هو سفينة صغيرة بسارين على احداهما شراع مثلث . فاوجست خيفة من السفر فيها ورأيت ولكن بعد فوات الوقت ان من اخطر السفر في مثل هذا المركب الصغير الذي قد لا يحتمل تلاطم امواج البحر المتوسط وخصوصاً وهو مثقل بثمانين من اكياس الرز . ولما لصق القارب بالمركب تدلى منهُ سلم من حبال فصعد القواس اولاً ثم تبعتهُ مع الجارية والشاب الارمني ونقل البحارة كل صناديقي وامتعتي فجلسنا عند مؤخر المركب بينما كانوا يناولون اكياس الرز من القارب الى المركب حتى امتلأ منها وصارت كجبل عالٍ امامنا . وفي هذه الاثناء دنا مني رجل طويل بلباس ازرق وقبعة سوداء من اللرو وحياني بالرومية قائلاً «كالميرا» وعرفني بهِ القواس فاذا هو ربان السفينة ثم ذهب للاحظة اتمام الشحن . وضاق بنا المكان واكياس الرز من حولنا ونحن في فرجة ضيقة بينها لا تكاد تكفي لجلوسنا فكيف تقدر ان تنام او تسير . وليس في المركب سوى غرفة واحدة للربان واخرى للطبخ والحفش واقفاص الطيور وفي جانبيهِ قاربان صغيران مربوطان بحبال السارية

وفي المطبخ خادم وهو غلام رومي صغير في الثالثة عشرة من عمرهِ فلما رأى الجارية صاعدة الى المركب صرخ بملء صوتهِ «كاكوما كالا» اي ها هي سيدة حسناء ولا اعلم هل

كان يقصد بذلك السخرية . ولما انتهى القواس من شحن الرز جاء الينا مودعاً فقلت لهُ اين الغرفة التي قلت لي عنها فقد وعدتني انك متكلم الربان ليضعني مع جاريتي في غرفة مخصوصة فاين هي . فلست ارى في هذا المركب سوى غرفة الربان . فانظر الى ما نحن فيهِ في هذه الفرجة الضيقة اننا لا نقدر ان نمد ارجلنا فيها حتى نبقى على هذه الحالة كل مدة السفر ان ذلك امر لا يطاق . فتبسم واجاب ببرودة كن مطمئناً فقد كلمت الربان وسيضعك في مكان احسن من هذا

ثم ودعني وانصرف وركب في القارب ورجع الى دمياط . وكان المركب مع ثقل شحنهِ يتمايل يمنةً ويسرةً من هبوب الريح وتلاطم الامواج فقلت في نفسي ان المركب يرقص بنا ونحن في البوغاز فكيف اذا خرج في البحر العجاج . هل ابقى مسجوناً بين اكياس الرز مدة ثلاثة ايام او اربعة او اكثر حسب ملاءمة الريح لنا . فسلمت امري الى حكم قهري لا مرد لهُ والتفت نحو لارمني وكان جالساً بجانبي وقلت لهُ ان يذهب ويسأل الربان عن الغرفة التي وعدني بها القواس وقل لهُ اني مستعد لان ادفع اجرتها مهما كانت . فذهب وبعد هنيهة رجع مع الربان فقال لي هذا ارجوك المعذرة يا سيدي اذ ليس في مركبي غرفة تصلح لك تعال معي حتى اريك غرفتي التي انام فيها

فقادني بين الاكياس وقد تعذر علينا المسير الى ان وصلنا الى كوة مربعة ينزل فيها ببعض درجات الى غرفة صغيرة ضيقة مظلمة لا تسع شخصين اذا تمددا . وقال لي هذه هي الغرفة ان شئت فاجلس فيها فابيت وما صدقت ان خرجت من هناك وقد ضاق صدري واشتد بي الكدر والغم والندم فلما رآني الربان في تلك الحالة طيّب خاطري واخذني الى جانب المركب حيث القارب الكبير وفوقهُ مظلة من القماش وهو مربوط ربطاً وثيقاً في السارية وقال لي هذا اصلح مكان لك عندي ولك فيهِ سعة وراحة في الجلوس والنوم وسافرش بطن القارب بالاحرمة واجعل لك اغطية لتقيك من البرد . فهاي غرفتك مع جاريتك فهل انت مسرور؟ ولما رأيت المكان صالحاً سري عني قليلاً

ربان السفينة

وعند عصاري النهار هبت ريح موافقة واقلع بنا المركب من البوغاز . وكان مسيرنا متعرجاً حسب هبوب الريح وحسب الطريقة القديمة في النهار تسترشد السفينة

بالشمس وفي الليل بالنجوم فتلت للربان لماذا لا تضع في مركبك « البوصلة » فاراني على مقربة من دفة المركب بوصلة قديمة مخربة وقال لي قلما اعتمد عليها لطول خبرتي وحنكتي في الاسفار . وتبينت الرجل لاعلم اخلاقهُ واوصافهُ من ملامحهِ فظهر لي انهُ كثير الادعاء والدهاء يثق بنفسهِ وخبرتهِ البحرية اكثر من ثقتهِ بمركبهِ وشراعهِ القديم و بوصلتهِ المسطلة ودفتهِ الصغيرة

وعند المساء دعاني اول مرة للعشاء معهُ وكان العشاء قصعة كبيرة من الرز فجلسنا كلانا وبحرية المركب الثانية والشاب الارمني حول هذا الهرم الكبير من الرز وكنا نأكل بملاعق صغيرة من الخشب . ثم احضر لنا ابريقاً كبيراً من الخزف ملئ خمراً تدعى عندهم « كومنداري » وهي في الحقيقة خمر قبرصية حزيفة الطعم واظهر لي كثيراً من التودد واللطف وانطلق لسانهُ في الحديث بعد ان امتلأ جوفهُ من الخمر واظهر لي حقيقة امرهِ فقال انهُ يدعى — بابا نقولا — من اهالي طرابلس الشام وهو من طائفة الروم الكاثوليك . وسألني هل افهم اللغة اللاتينية فاجبتهُ بالايجاب . وحينئذٍ اخذ من جيبهِ علبة من صفيح واخرج منها ورقة كبيرة من الرق النباتي ووضعها امامي وقال لي اقرأ فهذه احدى الشهادات باستقامتي ومتانة سفينتي وحسن سلوكي مع السياح والركاب وامانتي في تسليم البضائع الى اربابها فاخذت الورقة وفتحتها واذا هي مكتوبة باللغة الطليانية لا اللاتينية موقعة من بعض اياء الاراضي المقدسة الفرنسيسكان ومآلها ان الربان الكسيس كاثوليكي عاملهم احسن معاملة ونقلهم في مركبهِ من بيروت ودمياط الى يافا . وفي اسفل الورقة ختم القبر المقدس بالشمع الاحمر . فقلت لهُ ان هذه الشهادة معطاة لشخص يدعى الكسيس وانت قلت لي ان اسمك بابا نقولا . اجاب لقد اخطأوا في كتابة الاسم

ولا اعلم مبلغ هذا الكلام من الصدق وداخلني ريب في حقيقة اسم هذا الرجل وجنسيتهِ وانتسابهِ للكاثوليك مع ان ظواهرهُ تدل على انهُ روحي صرف ولغتهُ اليونانية . وربما انتحل لنفسهِ هذا الاسم من ربان آخر يدعى الكسيس اشترى منهُ المركب والشهادة معاً

وبعد الغداء رجعت الى موضعي في القارب وهب النسيم المنعش وكان الجو صافياً والبحر رهواً واما الشاب الارمني فجلس بالقرب من الجارية يسليها بقصص وحكايات خرافية

وكنت اسمعهُ يقول لها من حين لآخر « كان يا ستي » قال الملك يا ستي » وهي تصغي اليهِ باصغاء وسرور . وكان الربان يلعب بالشطرنج مع مدير الدفة وفرش البحارة السلون ثيابهم على ظهر المركب للقيام بفروض صلاتهم متجهين نحو القبلة حيث بلادهم المقدسة وليس في الدنيا امة اشد تمسكاً بفرائض دينها من الامة الاسلامية

وفي صباح اليوم الثالث نهضنا من النوم فظهرت لنا عن بُعد جبال فلسطين وانتعشت قلوبنا عند دنونا من البر بعد ان لبثنا ثلاثة ايام بين السماء والماء . وكان الربان على مقربة منا يعزف على قيثارةٍ نغماً رومياً . وخادمهُ الغلام يغني اغنية عربية مطلعها « يا حبيبي يا عيني يا محبوبي يا سيدي » وهو يكررها مراراً . فسألت الارمني عن معنى كلمة « حبيبي » فقال تعني طائش او مجنون

وعند عصاري ذلك اليوم سكنت الريح وكانت السفينة تسير متثاقلة ورأيت على وجه الارمني علائم الكدر والغم فسألتهُ عن السبب فقال اخشى ان يطول سكون الريح ولا نصل الى احد الشواطئ قبل يومين او ثلاثة . قلت وما الضرر في ذلك فنحن في أمنٍ وارتياح . قال نعم ولكن ماء الشرب كاد يفرغ من عندنا

فذعرت من هذا النبإ وقلت لهُ عجباً نحن في خطر الموت عطشاً والربان جالس بغير اكتراث يتلاهى بالشطرنج ويغني ويعزف بالقيثارة هلم بنا نكلمهُ فاخذني وارائي برميل الشرب فتطلعت واذا في قعرهِ شبر من الماء لا يكاد يملأ ست زجاجات . ولما سألنا الربان عن ذلك اجاب ليس في اليد حيلة والامل معقود بنواصي الريح فاذا وافتنا نصل غداً الى حيفا او عكاء فنملأ براميلنا ماء قراحاً . ثم عاد الى موضعهِ يعزف على قيثارتهِ وغلامهُ يكرر اغنيتهُ « يا حبيبي يا عيني » فرجعت الى موضعي اسفاً من برودة طبع هذا الرجل وعدم اكتراثهِ لما نحن فيهِ من الاخطار

صحوت عند الفجر في اليوم التالي وتطلعت الى الشرق مؤملاً ان ارى المركب على مقربة من احدى المدن البحرية فظهرت لي جبال فلسطين بالجلى وضوح وجبل الكرمل على مسافة بعيدة عنا . وجُلت في السفينة فرأيت الناس كلهم لم يزالوا نياماً عدا الغلام الرومي فكان واقفاً عند برميل الماء يغرف منهُ و يغسل وجههُ ورأسهُ كأنهُ عند عين ماء متدفقة . فصعد الدم الى رأسي من هذا العمل نحن في المركب خمسة عشر شخصاً ولم يبقَ عندنا من الماء ما يكفينا لشرب في ذلك اليوم . وهذا الغلام يستنفدهُ في غسل رأسهِ ان ذلك

لعاب عظيم . فتقدمت منهُ وانتهرتهُ بحدة . ولما لم اعرف بالعربية كلمة اقولها في تأنيبه فكرت في كلمة « حبيبي » التي فسرها لي الارمني بمعنى طائش او مجنون فقلت لهُ مظهراً الغضب آه « يا حبيبي يا حبيبي » ففحك وتوارى عني . ولما علمت حقيقة معنى يا حبيبي عاتبت الارمني على ما فعل ولكن ظهر لي انهُ لم يتعمد الخطأ

وقال لنا الربان انهُ اذا ظلت الريح ملائمة لنا ففي صباح اليوم التالي نصل الى جبل الكرمل . وحينئذٍ سمعنا صراخاً مزعجاً من ظهر المركب « القرخة القرخة » فخرجنا لنعلم جلية الامر فاذا دجاجة لاحد النوتية فرت من القفص وطارت وسقطت في البحر وصاحبها واقف يندبها بدموع سخينة واخيراً القى نفسهُ في الماء على حين غفلة قاصداً ان يخلص الدجاجة من الغرق . فاضطر الربان ان يصدر الامر بتوقيف المركب عن المسير وكان النوتي يسبح وراء الدجاجة وقد جرها الموج الى مسافة بعيدة عنا ثم قبض عليها ورجع الى المركب منهوك القوى فحمل على آخر رمق . وقد استغرق وقوفنا مدة ساعة فحرقت الارم واشتد بي الغيظ من جراء ذلك وقلت للربان كنت اود ان ادفع ثمن عشر دجاجات ولا تتوقف عن المسير . فقال ان هذا النوتي فقير لا يملك غير هذه الدجاجة ويعتقد كرجل متدين انهُ اذا تركها تغرق يرتكب وزراً . وتداخل الارمني في الحديث فقال ان من فروض الدين عند المسلمين الشفقة على الحيوانات ولا يجوز عندهم الا قتل الوحوش الضارية وذبح الحيوانات الصالحة للاكل التي اجاز الشرع ذبحها وانهم يشفقون على الكلاب ايضاً ويرون من الصلاح تقديم الطعام لها وخصوصاً سكان اسطنبول ولذلك ترى شوارعها غاصة بالكلاب تزاحم المارة في سيرها وان لها جراية معينة من المطبخ السلطاني . وذكر لنا نادرة حدثت على عهد احد السلاطين وذلك ان العامة تذمروا من كثرة الكلاب في الشوارع ورفعوا شكواهم الى السلطان فامر بجمعها وابعادها الى جزيرة قفراء قريبة من هناك لانهُ لا يجوز قتلها . وبعد بضعة ايام اشتد بها الجوع وملأت الفضاء نباحاً وعواء ليلاً ونهاراً حتى اقلقت راحة الناس فاجتمع الوف من الصنناء وذهبوا الى السلطان وطلبوا ارجاع الكلاب لئلاَّ تموت جوعاً فامر بارجاعها الى المدينة

ديمتري نقولا